حكايتي مع الدراما

سعيد زياد عرباس

المعلم سعيد عرباسي.

سبق أن ذكرت الكثير من المحطات الفاصلة في حياتي من خلال «حكايتي مع التعليم» في العدد السادس والثلاثين من مجلة «رؤى تربوية»، ماراً مرور الكرام على أنني ملتحق ببرنامج دبلوم "المدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي" التي ينظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطان سنوياً في مدينة جرش الأردنية، لكنني لم أذكر شيئاً من تفاصيل هذه المغامرة الرائعة.

في البداية، كنت قد التحقت بدورة تدريبية في مجال الدراما في التعليم في محافظة قلقيلية، فشعرت أني وجدت فيها ضالتي، وجدت فيها ما يستحق البحث والتفكير والتأمل، لأني، وبكل بساطة، لا أريد أن أُعلم الأجيال الجديدة بالطريقة التي تلقيت بها تعليمي المدرسي، مُعلمي الأفاضل، لم يبخلوا علي في شيء مما علمهم الله، إلا أني كنت أمِل وأمِل وأمِل من أسلوب التعليم الموحد آنذاك (التلقين ولا غير ذلك من أسلوب).

بعد مرور سنتي الأولى في مهنتي كمُعلم، تقدمت بطلب الالتحاق بالمدرسة الصيفية، وتم قبولي بحمد الله، وفي الوقت نفسه، كُنت قد تقدمت أيضاً بطلب آخر للالتحاق بدراسة الماجستير في جامعة النجاح الوطنية. في بداية الأمر، كانت الأمور تسير على خير ما يرام، وكان موعد بدء المدرسة الصيفية، لا يتعارض مع موعد التقدم لاختبار القبول في الجامعة.

بالنسبة لي كانت تلك الفترة هي الفاصلة في تحديد ملامح مستقبلي المهني والتعليمي.

في أحد أيام تلك الفترة وأنا أتصفح موقع الجامعة، وإذا بخبرٍ مفاده «تأجيل اختبار القبول أربعة أيام من الموعد المحدد سابقاً»، كان ذلك الخبر كالصاعقة، لماذا حصل ذلك؟ كانت الأمور تسير بالشكل الصحيح. تواصلت مع إدارة الدراسات العليا في الجامعة، ولم أتلق منهم إلا أعذاراً بأن هذا ما حدث، وهذا ما سينتهي عليه الأمر؛ أي أنهم لن يعيدوا النظر في تغيير الموعد مرة أخرى.

لم يكن هناك أمامي إلا حلٌ واحد، أن أتسلح بالطموح، وأن أقوم بتلك الخطوة المجنونة، وهي التحاقي بالمدرسة الصيفية في الأردن، وأن أعود يوم اختبار قبول الماجستير إلى فلسطين ومن ثم العودة في اليوم نفسه لكي لا أخل بقوانين المدرسة. لم تكن هذه الفكرة مقبولة من أحد سواي، فمن يفكر بعقله لن يرى لهذه الخطوة أي أمل في النجاح، وفي الوقت ذاته، لم يكن لدي قبول لأي فكرة أُخرى. في البداية، قوبلت الفكرة بالرفض التام، إلا أن لإصراري الغريب آنذاك رأياً آخر. تواصلت مع إدارة المدرسة الصيفية، فلم يكن طلبي مقنعاً، وبخاصة أنه في فترة الصيف، وما تشهده تلك الفترة من ازدحام شديد في حركة المسافرين بين الأردن وفلسطين. وبعد تكرار طلبي تم قبول فكرتي في نهاية الأمر، وبدأت أستعيد الأمل.

بصراحة وبكل صدق، لم يكن لدي أي تفضيل بين دراسة الماجستير ودراسة دبلوم الدراما في سياق تعلمي.

بعد ذلك، بدأت مغامرة المدرسة الصيفية، وكان كل شيء جميلاً، أصدقاء جُدُد، مُعلمين جُدُد، أساليب جديدة، أجواء جديدة. مضت الأيام الأربعة الأولى بشكل مُدهش جداً، وجاء وقت اختبار قبول الماجستير، فقام أحد الأصدقاء بالتواصل مع إدارة الجسر الفاصل بين الأردن وفلسطين وعن سير الأمور هناك، فلم تكن الأمور مُبشرة كثيراً، إلا أن الله ودعاء والدي كانا بجانبي في كل خطوة أخطوها نحو بلدي الحبيب فلسطين.

غادرت المدرسة الساعة الثانية بعد منتصف الليل متجهاً إلى جامعتي، وصلت مدينة نابلس، بحمد الله، الساعة الواحدة بعد الظهر، فكان هنالك نصف ساعة فقط على موعد الدخول إلى قاعة الاختبار. حاولت الاتصال بوالدي لأطمئنهم عن حالي، فلم أستطع، لأن ذلك هو يوم نتائج الثانوية العامة، وكل خطوط المحمول مشغولة. فعلى الرغم من ازدحام الأفكار في ذهني بالكثير مما مضى على خير، ومن شعوري بالخوف مما هو قادم، خطرت في بالي فكرة وهي أن أتصل بوالدي من الشريحة الأردنية «زين» على الهاتف الأرضي ونجحت الفكرة، وبالطريقة نفسها قمت بالاتصال بمكتب للسفريات لتوفير سيارة أجرة للمغادرة بعد الاختبار مباشرة إلى أريحا في طريق العودة إلى الأردن، وبالفعل بعد انتهاء الاختبار خرجت من الجامعة ورأيت السيارة التي تنتظرني وقد مل سائقها من الانتظار، ومن هنا بدأت رحلة العودة المثيرة، التي في بدايتها لم تكن توحي بخير، حُجزتُ لمدة ساعة كاملة على حاجز إسرائيلي «حوارة»، علماً أنه لم يتبق الكثير على موعد إغلاق الجسر الفاصل بين فلسطين والأردن. فكان هناك الكثير من الشرود في أفكاري، هل أعود أدراجي وأنسحب، أم أن الأمور ستسير بمُعجزة.

رن هاتفي للمرة الأولى في هذا النهار الطويل، وإذا به صديقي وزميلي «معتصم الأطرش» يحاول الاطمئنان على سير الأمور معي، أخبرته أني على الحاجز، فما كان منه إلا أن ضحك وقال لي أنت بطل، واستمر يا صديقي. وكأن كلامه كان بداية التمسك بأمل حدوث تلك المعجزة التي انتظرت، فزادت العزيمة كثيراً، وبفضل الله تم تحريري من الحجز بعدها بقليل.

عند وصولي لجسر أريحا تقدمت كثيراً نحو مناطق الخروج، طلب مني الشرطي الفلسطيني العودة إلى أماكن الانتظار، فتقدمت على الرغم من ذلك وأعطيته جواز سفري وقلت له: انظر، لقد أتيت اليوم لفلسطين لأتقدم لاختبار مهم وأريد العودة لكي لا أخسر ثقة إدارة المدرسة الصيفية بي، وبالتالي أخسر الرهان. حينها تبسم وقال لي مازحاً تفضل بالعبور باعتبارك حالة خاصة (مجنون).

بعد ذلك كل الأمور سارت بشكل جيد، ووصلت المدرسة الصيفية الساعة العاشرة والنصف ليلاً وسط تعجب كل الزملاء والمعلمين هناك. شعرت بأني بطل قومي آنذاك، فالكل يهنئني على ما قمت به في ذلك النهار الطويل المُرهق.

أكملت الدراسة بكل مثابرة وجد، فلقد بدأت أرى الأشياء بشكل آخر، كل شيء بدأ يحصل معي في ذلك الوقت كان جديراً بالتأمل والتفكير. أصبحت أرى الحياة بمنظور آخر. كل ردة فعل وكل تصرف وراءه الكثير مما أجهل. لذلك، كان من السهل جداً عليَّ أن أنسى كل مشاق السفر، فالتغير الذي بدأ يظهر على همتي وعزيمتي للعودة إلى المدرسة للعمل، فاق كل التوقعات، كل ما كنت أفكر فيه في تلك الفترة، هو أن أبدأ بالتغير من مهنتي في أسرع وقت ممكن.

وبعد العودة مباشرة بدأت بتطبيق الدراما مع طلابي، فكنت أستطيع بكل بساطة أن أرى السعادة في وجوههم، لقد تغيرت مهنتي كثيراً، وأصبحت الأقرب لقلوبهم، لقد لمست أنني عزفت عن تلقينهم الدروس بالطريقة التقليدية، أصبحت أنتظر منهم الإجابات، لم أعُد أقدم التلميحات لما أريد منهم، أصبحت أفكر بكل شيء يُقال، يا إلهي كم كانت طفولتنا صامتة، **إما أن تقول ما يُريد سماعهُ المعلم وإما تصمت!** أخذت من طلابي الكثير، تذكرت كيف كنت أفكر في صغري، وعرفت أهمية تلك الأفكار، لقد تبين لي أنها ليست تافهة كما كنت أشعر.

بعد مرور السنة الأولى، أصبحت بحاجة للنضوج أكثر في موضوع الدراما، وذلك بسبب شعوري بالحاجة للمزيد، فأفكار طلبتي فاقت تقديراتي، وبالتالي أصبحت أواجه صعوبة ليس ببسيطة في توجيه هذه الأفكار.

كلما قمت بتطبيق درس دراما جديد، أرى الطلبة سعداء جداً، ويتكلمون بكل راحة، في المقابل أكون أنا على أعلى درجات التوتر والشد.

في كل مرة أضع خطة للدرس، وفي نهايته أكتشف أن الطلبة قد ساقوني في أفكارهم نحو طريق آخر، وعلى الأغلب أكتشف أن أفكارهم أقوى بكثير من أفكاري، وهنا أبدأ بالانسياق لأفكارهم الرائعة والإبداعية، محاولاً ترتيبها للاستفادة منها، وهذا ما أرى نفسي يوماً بعد يوم بأني بحاجة إلى تطور وتمكن أكثر بكثير مما أنا عليه.

بدأت ألمس في نفسي مدى شعوري بهم، أفكارهم البسيطة ما هي إلا انعكاسات لطبيعة حياة كل واحدٍ فيهم. كل شيء كنت أسمعه بدا جديراً بالاهتمام، بدأت اكتشف الاختلاف في حصصي التي تُطبق بأسلوب الدراما، أصبح الطلاب هم المتحدثون، وما أنا إلا "مستمع جيد"، أحاول تجميع الأفكار وتقريب وجهات النظر بينهم ليس إلا، محاولاً تحديد الظروف للتعمق في الاستكشاف في مجال التعلم آنذاك؛ أي أصبحت وطلبتي شركاء في التعلُّم.

كل ما سبق جعلني أتمسك أكثر في الاستمرار بهذه المدرسة الرائعة، على الرغم من التزاماتي الأخرى بدراسة الماجستير (الفصل الصيفي) آنذاك، والحمد لله مرت السنة الثانية بشكل أفضل، فعلى الرغم من تغيبي عن ثلاث محاضرات في جامعتي، وعلى الرغم من موعد الاختبار النهائي للمساق الذي يصادف اليوم التالي مباشرة لموعد العودة من الأردن الشقيق، فإن الله منَّ علي بشخص ومعلم رائع، كان متفهماً جداً لطموحي، واقتنع كثيراً بمدى الفائدة التي تقدمها مساقات هذه المدرسة، وبقي على تواصل شخصي معي، وطلب من زملائي تزويدي بالمواضيع التي تم تناولها أثناء غيابي. وبفضل الله، حصلت على علامة بتقدير جيد جداً في هذا الفصل.

عندما بدأت بتحضير الدروس في هذه المرحلة، كان الأمر أسهل بعض الشيء في التخطيط، إلا أني ما زلت أواجه بعض الصعوبة أثناء التطبيق، لذلك سأبقى أحاول وأحاول حتى أتميز في هذا المجال، ليس لحبي للتطور وحسب، بل لأقدم لطلبتي كل مقومات التفكير الإبداعي.

فبعد ما أراه يوماً بعد يوم في أعين طلبتي، لن أكون قادراً على أن أخذل أفكارهم مرة أخرى. فقد صمتوا كثيراً، وكتموا أكثر.

عندما حان وقت التقدم للسنة الثالثة والأخيرة للمدرسة الصيفية، واجهتني عقبة لم أستطيع تخطيها. وهي فتح التسجيل للمساقين المتبقيين لي في دراستي الجامعية. مع العلم أن هذا لم يحدث مسبقاً، فقد كان المخطط أن أقوم بتسجيل مساق واحد فقط، وأن ألتحق بالمدرسة الصيفية، ومن ثم أسجل المساق الثاني في بداية الفصل الدراسي الأول للعام الدراسي الجديد. لذلك، خضعت للتسليم لقوانين الجامعة التي لا تسمح لي بالتغيب أسبوعين متتاليين في فصل مكثف (الفصل الصيفي)، أي الغياب عن 6 محاضرات على الأقل، وبالتالي فصلي من هذا الفصل. لذلك، قمت بالتأجيل على أن أعود في السنة الحالية إلى الالتحاق بهذه المدرسة، والآن تخرجت من برنامج "الدراما في سياق تعلمي".

مدرسة ذكور عزون المتوسطة/ قلقيلية

المعلم سعيد عرباسي خلال مشاركته في ورشة الثقافة السينمائية مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي 2015.